

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بعد أن بيّن النظام العام في عمل السوء وجزائه، فقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ بيّن في هذه الآية النظام العام في عمل الصالحات وجزائها، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، وهي الأعمال التي تصلح بها النفوس ممّا جاء عن الله ﷻ في الأوامر والنواهي⁽¹⁾، وقد جمعت الآيتان شروط صحة العمل، فالعمل لا يكون صحيحاً مقبولاً عند الله إلا إذا توافرت فيه هذه الشروط: وهي الإيمان والتوحيد والإخلاص، فيقصد بعمله وجه الله تعالى، ثم أن يكون متابعاً للنبي ﷺ فيكون عمله مهتدياً بشريعته⁽²⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

- (1) ﴿يَعْمَلُ﴾: الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يُفَعَّلُ⁽³⁾، وهو كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل⁽⁴⁾؛
- (2) ﴿الصَّالِحَاتِ﴾: الصَّادُ وَاللَّامُ وَالْحَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَسَادِ، يُقَالُ: صَلَحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلَاحًا، وَيُقَالُ: صَلَحَ بِفَتْحِ اللَّامِ⁽⁵⁾، والصَّلاح: ضدُّ الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال؛
- (3) ﴿ذَكَرٍ﴾: الذَّكَرُ: ضدُّ الْأُنْثَى، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: 36]⁽⁶⁾، والذَّكَرُ محرَّكة، والذَّكِير من الحديد: أَيْسُهُ وَأَشَدُّه وأجوده، وبذلك سُمِّي السَّيْفُ:

(1) اللوحيّ، أولى ما قيل: 3/131.

(2) الجربوع، الأمثال القرآنية القياسية: 2/542.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل).

(4) الراغب، المفردات: (عمل).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).

(6) الراغب، المفردات: (ذكر).

مَذَكَّرًا، أي: شَفَّرْتَهُ حديدٌ ذَكَرَ، والمعنى المحوري: قوَّةُ الشَّيْءِ وصلابة مادَّته بحيث ينفذ: كالحديد الفولاذ، يُزاد في السَّيْف وغيره؛ لينفذ، ولا ينثني، والذَّكَرُ خلاف الأنثى أَصْلَبُ وأخشن منها⁽¹⁾.

(4) ﴿أُنْثَى﴾: الْأُنْثَى: خِلَافُ الذَّكَرِ، وَيُقَالُ: سَيْفٌ أُنْثَى الْحَدِيدِ؛ إِذَا كَانَتْ حَدِيدَتُهُ أُنْثَى، وَأَرْضٌ مِثْنَاثٌ وَأُنْيَيْتَةٌ: سَهْلَةٌ مُنْبِتَةٌ خَلِيقَةٌ بِالنَّبَاتِ لَيْسَتْ غَلِيظَةً بَلَدَ (أي: قطعة أرض خالية) أُنْيَيْتٌ: لَيِّنٌ سَهْلٌ.

والمعنى المحوري: لَيِّنٌ أَثْنَاءَ الشَّيْءِ وعدم غلظها وصلادتها، كالأرض السَّهْلَةَ المتسبِّبَةَ التُّرْبَةَ اللَّيِّنَتُهَا، ومنه: حديد أنيث: غير ذكير، فالأنيث من الحديد: هو الَّذِي يُسَمَّى الحديد المطاوع، والذَّكِيرُ منه: هو الصُّلْبُ⁽²⁾.

(5) ﴿نَقِيرًا﴾: جذر الكلمة هو: (نقر)، والنَّقِيرُ: نَكْتَةٌ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ، مِنْهَا تَتَبَتِ النَّخْلَةُ، والنَّقِيرُ: أَصْلُ خَشْبَةٍ يَنْقَرُ، فَيَنْبِذُ فِيهِ، وَالنَّقَرُ: ضَرْبُ الرَّحَى وَنَحْوَهُ بِالْمَنْقَارِ، وَالنَّقَارُ: الَّذِي يَنْقُشُ الرِّكْبَ وَاللَّجْمَ وَالرَّحَى⁽³⁾، وفائدة هذا المعنى: أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ مَهْمَا صَغُرَ حَتَّى لَوْ كَانَ بِمَقْدَارِ نُقْرَةٍ، فَإِنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَهُ:

المعنى العامُّ للآية:

وَالْآيَةُ فِي مَعْرِضِ الرَّدِّ عَلَى فَرِيَةٍ: أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُ⁽⁴⁾؛ إِذْ أَبَانَ اللَّهُ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا فِمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ الْآيَتَانِ⁽⁵⁾، وَجَعَلَ مِنْهَا قَاعِدَةً عَمَّمَهَا فِي الْجِزَاءِ لِلنَّاسِ جَمِيعًا، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾، فَذَكَرَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِشَرْطِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فَإِنْ كَانَ الْإِيمَانُ قَدْ اخْتَلَّ مِنْهُ بَعْضُ مَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ الْحَقُّ؛ فَهُوَ كَالْعَدَمِ، فَعَقَّبَ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا فِمَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وَالْمَعْنَى:

(1) جبل، العجم الاشتقاقي: (ذكر).

(2) جبل، العجم الاشتقاقي: (أنث).

(3) الخليل، العين: (نقر).

(4) الزُّرْقَانِي، مناهل العرفان: 2/271.

(5) النيسابوري، أسباب نزول القرآن: 182.

أَنَّ الفوز في جانب المسلمين؛ لا لِأَنَّ أَمَانِيَهُمْ كذلك، بل لِأَنَّ أسباب الفوز والنَّجاة متوافرة في دينهم⁽¹⁾، فقال: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾، أي: ولا يُنقصون شيئًا منها، وإن كان في القلَّة، مثل: نقيير النَّوَاة، وفي هذه الآية وما قبلها من الموعظة ما يهدم صروح الأمانِيِّ من جهلاء المسلمين الذين يعتمدون على الشَّفاعة والقرايين، والذين يظنُّون أنَّ مجرد الانتماء إلى الإسلام أو الصُّلحاء كفيل بالنَّجاة⁽²⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

اكتمال اللَّفِّ والنَّشر مع الآية السَّابقة:

هذه الآية بأكملها جزء من النَّشر الذي أَقرَّته الآية السَّابقة، فقولُه تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هذا لَفٌّ، وقولُه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وهذا هو النَّشر، وفائدة هذا اللَّفِّ والنَّشر: الإعلام بأنَّ النَّجاة لا تكون بِأَمَانِيَّ النَّاسِ منكم أو من أهل الكتاب، فالتَّقدير: ليس النَّجاة بِأَمَانِيَّكُمْ ولا أَمَانِيَّ أهل الكتاب، ثم تستكمل الآية الكريمة المعنى إيضاحًا في بيان ما يوجب العقاب، فيقول: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ثم يبيِّن سبل الثَّواب، فيقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾.

العكس⁽³⁾ بين الآيتين:

الآية في عموم الإيمان والعمل الصَّالح⁽⁴⁾، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ

العمل الصَّالح
جوهرة الإيمان،
والإخلاص
ضمانه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/209.

(2) للوصلي، أولى ما قيل: 3/132.

(3) العكس: هُوَ أَنَّ يُؤْتَى بِكَلَامٍ يُقَدَّمُ فِيهِ جُزْءٌ، وَيُؤَخَّرُ آخِرُ، ثُمَّ يُقَدَّمُ لِلْوَخَرِ، وَيُؤَخَّرُ لِلْقَدَمِ، ينظر: الزُّرقاني، مناهل العرفان: 2/283.

(4) الزُّرقاني، مناهل العرفان: 2/283.

التَّلازم بين
الإيمان والعمل
الصَّالح في
الواقع

الإِحْياء
بمشكلة العمل
الصَّالح لصاحبه

الرَّفْق بالعباد

الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا» قُدِّمَ العمل الصَّالح على الإيمان، وفي الآية التَّالية: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» عكس نظم الأولى؛ لتقديم العمل في الأولى على الإيمان، وتأخيرها في الثانية عن الإسلام⁽¹⁾.

الجناس غير التَّام بين «وَمَنْ» و«مِنْ»:

قوله: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»، بين «وَمَنْ» و«مِنْ» الأولى أو «مِنْ» الثانية جناس، ف«وَمَنْ»: اسمٌ يدلُّ على الإنسان العامل للصَّالحات، سواءً أكان شرطاً أم موصولاً، و«مِنْ»: حرفٌ يشير إلى العمل الصَّالح، سواءً أكان لابتداء الغاية أم للجنس، فإنَّ كلاً منهما مركَّب من حرفين الميم والنون، وتشابه جرَّهما يشير إلى مشكلة العمل الصَّالح لصاحبه، وكلُّ إناء بالَّذي فيه يرشح، كما قال تعالى: «قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ» فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ [الإسراء: 84].

دلالة «مِنْ» في موضعها في الآية الكريمة:

«مِنْ» الأولى: هي للتَّبَعِيض، فائدتها: الرِّفْق بالعباد؛ لأنَّ الصَّالحات على الكمال لا يطيقها البشر، واشترط مع فعلها الإيمان؛ لأنَّه لا يُقْبَلُ عملٌ إلَّا به⁽²⁾.

وأنَّ كلَّ واحد لا يتمكَّن من عمل كلِّ الصَّالحات، وإنَّما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكم مُكَلِّف لا يلزمه زكاة ولا حجٌّ ولا جهاد، وسقطت عنه الصَّلَاة في بعض الأحوال على بعض المذاهب، وذكر الطَّبْرِيُّ: أنَّ «مِنْ» زائدة، أي: وَمَنْ يعمل الصَّالحات، وزيادة (مِنْ) في الشَّرْط ضعيف، ولا سيَّما بعدها معرفة، و«مِنْ» الثانية لتبيين الإبهام في: «وَمَنْ يَعْمَلْ».

(1) السيوطي، الإتقان: 3/319، والسيوطي، معترك الأقران: 1/308.

(2) السيوطي، معترك الأقران: 2/307.

وعندي أن ﴿مِنْ﴾ الأولى لم تخرج عن معناها الأصلي، وهو ابتداء الغاية، أي: ومن يعمل شيئاً من بداية ما يقال له: عملٌ صالحٌ، وهذا تعظيمٌ لكلِّ عملٍ صالحٍ؛ وإن كان صغيراً، ويؤكد قول النبي ﷺ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً، وَلَوْ أَنَّ تُعْطِيَ صَلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنَّ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنَّ تُفْرِغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنَاءٍ الْمُسْتَسْقَى، وَلَوْ أَنَّ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِبُهُمْ، وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجَّهَكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنَّ تَلْقَى أَخَاكَ، فَتَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّ تَوَسَّسَ الْوَحْشَانِ فِي الْأَرْضِ، وَإِنْ سَبَّكَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فَيْكَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ فِيهِ نَحْوَهُ؛ فَلَا تَسْبُهُ، فَيَكُونَ أَجْرُهُ لَكَ، وَوَزَرُهُ عَلَيْهِ، وَمَا سَرَ أُنْذَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ؛ فَاعْمَلْ بِهِ، وَمَا سَاءَ أُنْذَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ؛ فَاجْتَنِبْهُ"⁽¹⁾.

دلالة الفعل المضارع ﴿يَعْمَلُ﴾:

الفعل المضارع ﴿يَعْمَلُ﴾ معناه: طلب المداومة على العمل، وتجدد أنواع الأعمال، ثم بين أن الأعمال هي من قبيل الصالحات، فحسب، فقال: ﴿مِنْ الصَّالِحَاتِ﴾، فأفاد أنواع الصالحات التي لا يمكن حصرها... وجعل ركيزة الإيمان هي الفاصل والحكم.

المداومة على
الأعمال
الصالحة

ولما أبدى جزاء المسيء تحذيراً؛ أولاه أجر المحسن تبشيراً، فقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾، وخفف تعالى عن عباده بقوله: ﴿مِنْ الصَّالِحَاتِ﴾، ولما عمم بقوله: ﴿مِنْ﴾؛ صرح بما اقتضته في قوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾، وقيد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحال أنه ﴿مُؤْمِنٌ﴾؛ ليكون بناؤه الأعمال على أساس الإيمان ﴿فَأُولَئِكَ﴾، أي: العالو الرتبة⁽²⁾.

العدول من المبني للفاعل إلى المبني للثائب عن الفاعل في قراءة ﴿يَدْخُلُونَ﴾:

وقرأ الجمهور ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح التَّحْتِيَّةِ وضمَّ الخاء⁽³⁾، من الثلاثي (دخل)، وقرأه بعضهم بضمَّ التَّحْتِيَّةِ وفتح الخاء⁽⁴⁾ على

(1) الإمام أحمد، السند، الحديث رقم: (15955).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/411.

(3) وهي قراءة ابن عامر ونافع وحزمة والكسائي وعاصم برواية حفص، وخلف، ينظر: الداني، التيسير، ص: 97، وابن الجزري، النشر:

2/252.

(4) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب وروح، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/252.

البناء للنائب من (أَدْخَلَ)، وفيها إشارة إلى أَنَّ دخولهم الجنة محض كرم، وعظيم فضل من الله تعالى، لا بأعمالهم الصّالحات؛ وإن كانت أعمالهم سبباً فيه، وفي رفع درجاتهم، كما أخبر النبي ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ"⁽¹⁾.

وقراءة الجمهور ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل تشير إلى تصوير هذا الإكرام، وذاك الفضل العظيم في دخولهم الجنة؛ حيث ذلّل لهم الصّعاب، ويسّر لهم الأسباب، فعملوا الصّالحات، فكانت تلك الأعمال سبباً في دخولهم الجنة، والمنعم واحدٌ في الحالين، وهو الرحمن ذو الجلال والإكرام.

دلالة الطّباق في قوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾:

قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى﴾ تأكيد للعموم المفهوم من ﴿مِنْ﴾، فضلاً عن دلالة المساواة عند الله بين الذكر والأنثى، والرّد على من حرّم المرأة حظوظاً كثيرة من العمل والخير والتّفاعل في المجتمع، فقد جاء القرآن متبنّياً قضية المساواة أمام الله في تقديم الصّالحات والخير.

وكثيراً ما أردف القرآن ذَكَرَ الأنثى مع الذّكر، أو المرأة مع الرّجل، والآيات في ذلك كثيرة.

الحمل على اللفظ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾:

جملة: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال من الضّمير المستتر في ﴿يَعْمَلُ﴾ العائد على ﴿وَمَنْ﴾، وهو في اللفظ مفرد؛ ولذلك جاء الضّمير في صدر الجملة الحاليّة مفرداً؛ لنكته بلاغيّة، وهي الإشارة إلى هذا العمل المؤسّس على الإيمان، ولا قيمة لإنسان مهما يكن قدره من دون إيمان، كما أنّه لا التفات إلى جنس أو لون أو لغة.

(1) الطبراني، الأوسط: 6/332.

العموم
والمساواة

يوزن الإيمان
بعيداً عن جنس
صاحبه

الاختصاص والتتيميم في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾:

وردت هذه العبارة القرآنية أيضًا في سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الآية 97]، كما أنَّ العبارة تكررت في سورة غافر في قوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الآية 40].

الإيمان هو
المرآة العاكسة
الشاهدة على
أعمال كل ذكر
أو أنثى

والتتيميم: في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِثْرَ حَبَّةٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فتكرّر التتيميم هنا مرّتين، الأولى: في قوله تعالى: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ﴾؛ لأنّ (مَنْ) الشرطيّة تفيد العموم، فكان لا بدّ من تتيميمها بذلك للتأكيد، وإزالة وهم التخصيص، جرياً على معتقدات العرب القديمة في تفضيل الذكر على الأنثى وإيثاره بكلّ ما هو خير⁽¹⁾، والثانية: قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة حاليّة، فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتيميم في غاية الحُسْن⁽²⁾، وقيد في عمل الإنسان؛ لأنّه لو عمل من الأعمال الصالحة ما عمل، فلا ينفعه إلّا إذا كان مؤمناً، قال الزّمخشري: وإذا أبطل الله الأمانيّ، وأثبت أنّ الأمر كلّ معقود بالعمل الصّالح، وأنّ من أصلح عمله، فهو الفائز، ومن أساء عمله، فهو الهالك؛ تبين الأمر، ووضح، ووجب قطع الأمانيّ، وحسم المطامع، والإقبال على العمل الصّالح، ولكنّه نُصِحَ لا تَعْيِهِ الآذان، ولا تُلْقَى إليه الأذهان⁽³⁾، والذي تدلّ عليه الآية أنّ الإيمان شرط في الانتفاع بالعمل؛ لأنّ العمل شرط في صحّة الإيمان⁽⁴⁾.

فالجملة اعتراضية مؤكّدة أنّ أسباب الفوز والنّجاة متوقّفة على الإيمان، وجاءت كلمة الإيمان هنا مجملة لمعنى أركان الإيمان كلّها؛ إذ لا يصحّ تجزئة الإيمان، والجملة اسميّة تدلّ على الثّبات.

(1) صافي، الجدول: 14/384.

(2) الزّركشي، البرهان: 3/70، والسيوطي، معترك الأقران: 280.

(3) الزّمخشري، الكشاف: 1/600.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/76.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾:

استحضار صورة
سعادتهم حين
يدخلون الجنة

اسم الإشارة (أولئك) مبتدأ، والخبر جملة فعلية ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾؛ لتقوية حكم الإسناد، والجمع يدلُّ على كثرة الداخلين، والمضارع يدلُّ على تجدد الدُّخول مجاميع وزرافات، ويُصوِّر فرحتهم حين يدخلون الجنة، ومن تمام سعادتهم أَنَّهُمْ يُوفَّقُونَ أجورهم أضعافاً مضاعفة، ويوقنون بعدالة الملك ﷻ، ثم يبيِّن أَنَّهُ على الرِّغْم من كثرتهم وتواليهم إِلَّا أَنَّهُ سبحانه أعلم بكلِّ دقيقة في أفعالهم وحياتهم، فلا يُظلمون شيئاً، فتُجَدَّد ضمان الحقوق مهما صغُرَتْ بقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

السَّرُّ في تخصيص الصَّالحين بأنَّهم لَا يُظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك:

نفى النقصان
في الفضل دليلٌ
على نفيه في
العدل

مجازاة الصَّالحين تكون بإثابتهم على أعمالهم، وما يتبعها من إخلاص وإتقان وغير ذلك ممَّا لَا يُقدَّرُهُ المَلَكَان، وإنَّما يجزيهم الله عليه فضله، ولن يُنقصهم شيئاً ممَّا لم يُطَّلَع عليه أحدٌ غيره، وهذا المعنى ممَّا يُحَسِّن تخصيصهم بنفي النقصان عنهم، وينتفي عن غيرهم من باب أولى.

وقد ذكر الزَّمَخْشَرِيُّ لذلك وجهين، أحدهما: أن يكون الرَّاجِع في: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لِعَمَالِ السُّوء وَعَمَالِ الصَّالِحَات جميعاً، والثاني: أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالاً على ذكره عند الآخر؛ لأنَّ كلا الفريقين مجزيَّان بأعمالهما لا تفاوت بينهما، ولأنَّ ظلم المسيء أن يُزَاد في عقابه، وأرحم الرَّاحِمِينَ معلوم أَنَّهُ لَا يَزِيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنى عنه، وأمَّا المحسن؛ فله ثواب، وتوابع للثَّوَاب من فضل الله، هي في حكم الثَّوَاب، فجاز أن ينقص من الفضل؛ لأنَّه ليس بواجب، فكان نفي الظُّلم دلالةً على أَنَّهُ لَا يَقَع نقصان في الفضل⁽¹⁾.

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكشاف: 1/568.

بلادة الاستعارة في قوله: ﴿نَقِيرًا﴾:

﴿نَقِيرًا﴾، أي: عملاً قليلاً كالنَّقِير، والنَّقِير: ما في ظهر النّوأة من تلك الوقبة الصّغيرة جدًّا، ﴿نَقِيرًا﴾، فهو فعيل، بمعنى: مفعول⁽¹⁾، فشبهه القليل من العمل الصّالح بأقلّ ما يمكن أن يتصوّرهُ إنسان على سبيل الاستعارة التّصريحية؛ إذ صرّح بالمشبّه به: وهو (النَّقِير)، وحذف المشبّه: وهو (العمل القليل)، وفائدة هذه الاستعارة: استحضار ما يمكن أن يمرّ بخاطر السّامعين من صغر حجم العمل المُتقبّل عند الله سبحانه في قوله: ﴿مِنَ الصّٰلِحٰتِ﴾، كي لا يستهين، وينكر أحد صغر العمل ما دامت النّيّة صحيحة، وحاكمها الإيمان بالله سبحانه.

تصوير العنوي
بالمحسوس
لتوضيح كمال
العدل

بلادة الكناية عن العدم في قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾:

وعموم قوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ كناية عن عظيم العدل الإلهي، والإحاطة بكلّ مخلوقاته سبحانه تقديرًا وعلمًا، و﴿نَقِيرًا﴾: نائب مفعول مطلق، أي: ظلماً مقدار نقير⁽²⁾، أي: لا يظلم الله المطيع منهم بنقص شيء ما، ولا العاصي بزيادة شيء ما، كنّى بها عن العدم، وهذا على ما يتعارفه النّاس، وإلا فالله تعالى له أن يفعل ما يشاء، فإنّ ملكه - ومُلكه عامٌّ - لا يتصوّر منه ظلم كيفما فعل⁽³⁾، فالمراد هنا: المعنى المجازي كناية عن الضّئيل الحقير والتّافه الذي لا قيمة له⁽⁴⁾.

عظيم العدل
الإلهي

الحمل على المعنى في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾:

في قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ جاء اسم الإشارة مجموعاً، والمشار إليه معنى (مَن) الشرطيّة؛ لأنّه لفظ عامٌّ، يدخل فيه المفرد

التّفصّل
والإنعام

(1) صافي، الجدول: 5/181.

(2) الخزّاط، اللجتي من مشكل إعراب القرآن: 1/201.

(3) البقاعي، نظم الدّرز: 5/412.

(4) بنت السّاطن، الإعجاز البياني للقرآن: 487.

والمنثى والجمع، والمذكر والمؤنث، فحمل هنا على المعنى، وعبر عنه بالجمع؛ للإشارة إلى الفرق بين مقام العمل وإيمان صاحبه، ومقام الإنعام ودخول الجنة، فالأول: يناسبه التعبير بالمفرد، والحمل على اللفظ كما سبق، والآخر: يناسبه التعبير بالجمع، والحمل على المعنى؛ لأن دخول الجنة محض فضل وكرم، ولأن السعادة كل السعادة في دخولهم الجنة زمراً زمراً، فالتعبير بالجمع أنسب في الجزاء، وسبحان من إذا وعد، وفى، وإذا نعد، عفا!

سرُّ العدول عن (شيئاً) إلى (نقيراً):

أثر التعبير هنا بالنقيير، وفي مواضع أخرى بالشيء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: 60].

وقد تكرّر ﴿نَقِيرًا﴾ هنا بعد أن وردت قبلها في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 53]، والنقيير بحسب ما ورد في معاجم اللغة: هي نقرة النواة، أو البؤرة التي نتجت عن فعل دقيق، فالنقيير: نكتة في ظهر النواة منها تثبت النخلة، أو البؤرة التي تتضمن، وتكمن فيها طاقة، كنقرة النواة التي تتضمن طاقة كامنة تخرج منها حياة نخلة باسقة، أو هي أثر من طاقة تفعلت، فأنجزت هذا النقيير، فالنقيير كذلك: أصل خشبة ينقر، فينبذ فيه، والنقر: ضرب الرّحى ونحوه بالمنقار، وهذا متوافق مع دقة الأعمال وصغرها وكوامنها في النفس، فهي تشمل نيات البشر الخفية، مثل: الطاقة الكامنة في نواة الثمرة، أو نقرة طائر وما بذل من طاقة.

أمّا (شيئاً)؛ فإنّها لا تحوي من تلك المعاني، سوى أنّها تدلُّ على الشيء القليل الدقيق مهما يكن، فهي أعم؛ إذ إنّها جاءت في سياق يشمل كثيراً من المستثنين الداخلين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، فناسب شمول السياق عموم (شيء)، كما ناسب مكيّة السورة.

وناسب أن يذكر النقيير في معرض الحديث عن الأفعال والأقوال والأعمال للدلالة على أقلّ طاقة يمكن أن تبدل في حسنة أو سيئة، فيكون الجزاء من جنس العمل، فأفعال الناس يمكن تشبيهها بالنقيير لاحتواء الطاقة والحركة والفعل الكامن في النقيير، كما ناسب ذكره مدنيّة السورة؛ حيث السّياق الخاص من جهة، وشيوع النّخيل من جهة أخرى.

❖ الفروق المعجمية:

النَّقِيرِ والفتيل والقطمير:

تجتمع حقيقة هذه الثلاثة في النِّوَاة، فالنَّقِير: النُّقْرة في ظهر النِّوَاة التي تنبت منها النُّخْلة، والفتيل: هو الخيط الأبيض الدَّقِيق في شَقِّ النِّوَاة، والقطمير: هو الغشاء الرَّقيق الملتفُّ حول النِّوَاة، وقد حَصَّ القرآن الكريم كلاً منها في السِّياق المناسب لها على النَّحو الآتي:

أولاً: ذكر النَّقِير في القرآن الكريم في سورة النِّساء مَرَّتَيْن: أولاً في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۝﴾ [النساء: 53]، والأخرى: هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْلَ الصَّلَاحِ مِثْلَ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ثانياً: وذكر الفتيل ثلاث مَرَّات على النَّحو الآتي:

1- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝﴾ [النساء: 49].

2- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝﴾ [النساء: 77].

3- وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ فَمَن أَوْفَىٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝﴾ [الإسراء: 71].

ثالثاً: وذكر القطمير في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝﴾ [فاطر: 13].

ومن خلال تدبُّر السِّياقات المختلفة لهذه الآيات الكريمات يتَّضح لنا سرُّ اصطفاء كلِّ لفظة في سياقها، فالنَّقِير يعبر عن نقص شيء من الخير بمقدار هذه النُّقْرة التي في ظهر النِّوَاة، وهو مناسب لسِّياق آيتي سورة النِّساء، حيث إنَّه جاء في الآية الأولى في سياق الذين أوتوا نصيباً من الكتاب (وهم بعض أهل الكتاب من اليهود)، لو أنَّهم - فرضاً -

أَعْطُوا نَصِيبًا مِنَ الْمَلِكِ؛ فَلَنْ يُوْتُوا النَّاسَ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَوْ بِمَقْدَارِ النَّقِيرَةِ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ لَشِدَّةٍ بَخْلِهِمْ وَحِرْصِهِمْ، أَي: إِنَّهُمْ لَنْ يُنْفِقُوا مِمَّا عِنْدَهُمْ شَيْئًا.

وفي الآية التي معنا الخاصة بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات لن يُظلموا مِمَّا قَدَّمُوا من الخير، ولو بمقدار النَّقِيرِ؛ فناسب في الآيتين لفظ (النَّقِير) السياق من وجهين:

الأول: أَنَّ النَّقِيرَ أَثَرُ دَائِمٍ فِي النَّوَاةِ، وهؤلاء اليهود لن ينفقوا شيئاً ذا أَثَرٍ، مِمَّا يُرْجَى من صاحب المُلْكِ، على فرض إتيانهم الملك، وكذا المؤمنون الذين يعملون الصالحات يدخلون الجنة، ولا ينقصون من حسناتهم شيئاً.

الآخر: هو مثل يُضْرَبُ لِلشَّيْءِ الضَّئِيلِ، ولكن يُرْجَى منه الخير، كما تنبت من النَّقِيرِ النَّخْلَةُ، كما في عمل المؤمنين، أو يفترض منه الخير، كما في أهل الكتاب.

وقد يكون النَّقِيرُ مَثَلًا ضَرْبٍ لِلشَّيْءِ القليل مِمَّا يُكَالُ، ولو بمقدار ما يوضع في هذه النَّقِيرَةِ.

وناسب لفظ (الفتيل) سياق كل آية من آياتها الثلاث، وذلك من وجهين:

الأول: أَنَّ الفتيلَ ملْتَفٌ حول نفسه بامتداد شَقِّ النَّوَاةِ، وهذا مناسب لنظر المَرْكَبِ لنفسه، فإن كان له حقٌّ - ولو بمقدار الفتيل - لن يُنْقَصَ، وكذا من أخذ من متاع الدنيا القليل، ولبس لباس التقوى، لن يُظْلَمَ حَقُّه، إِنَّ خَيْرًا: فَخِيرٌ، وَإِنْ شَرًّا: فَشَرٌّ، وكذا مَنْ أوتي كتابه بيمينه يوم القيامة يقرؤون كتابهم، ولا يظلمون شيئاً، ولو بمقدار الفتيل، وما أشبهه بالكتاب الملفوف.

والآخر: مناسبة ذكر الفتيل في نفي الظلم عَمَّنْ هو في الدنيا أو في الطَّرِيقِ إلى الآخرة؛ لما في الفتيل من معنى الامتداد في شَقِّ النَّوَاةِ، ومناسبة ذكر النَّقِيرِ في نفي الظلم عَمَّنْ يدخلون الجنة؛ لما في أعمالهم من أَثَرٍ دَائِمٍ؛ إِذْ إِنَّهُمْ صاروا في دار التَّشْرِيفِ لَا التَّكْلِيفِ.

وقد يكون الفتيل مَثَلًا ضَرْبٍ لِلشَّيْءِ القليل مِمَّا يوزن، ولو بقدر هذا الفتيل الخفيف اللطيف؛ ولذا فسره كثيرٌ منهم⁽¹⁾ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40].

(1) كأبي حيان، في البحر للحبظ: 3/673.

كما ناسب لفظ القطمير سياق الآية الكريمة من وجهين:

أولهما: أنَّ القطمير هو الأنسب للمثل المضروب في نفي امتلاك الأصنام شيئاً، حيث إنَّه يُمكن فصلُه عن النّواة وحوزُه، وهو معنى المَلِك، ولا يُمكن فصل النّقيير عن نواته، كما يصعب نزع الفتيل غالباً، وسُمِّيَ بهذا الاسم؛ لأنَّه إذا أراد الإنسان استخراجَه؛ انفتل.

والآخر: أنَّ المَلِك كُلُّهُ لله، فكيف يعبدون أصناماً لا تملك شيئاً، ولا تخلُق شيئاً، ولو بقدر الغشاء الرقيق الذي حول النّواة؟ وهذه اللُّفافة الرقيقة التي خلقها الله، وجعلها حول النّواة، بينها وبين الثمرة، كأنَّها كُسوة لها، وأمَّا الأصنام التي من صُنْعهم يعبدونها من دون الله؛ فهي لا تملك ما تملكه تلك النّواة المخلوقة لله تعالى.

كما أنَّ ذكر القطمير مناسب لقدرة الله المطلقة، وعجز المخلوق عن خَلْق شيء، ولو قطميراً، فناسب ذلك اسم السُّورة (فاطر)، كما ناسب أهدافها، من آثار القدرة الإلهية، وآيات الله الكونية؛ فهذه النّواة من آيات الله الدّالة على قدرته وحكمته وربوبيّته.

وما أجمل قول الشاعر⁽¹⁾:

فيا عجباً كيف يعصى الإله *** له أم كيف يجعده الجاحدُ

ولله في كلِّ تحريكة *** وفي كلِّ تسكينة شاهدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آية *** تدلُّ على أنه الواحدُ

(1) نسبت إلى أبي العتاهية، من البحر المتقارب، وهي في ديوانه، ص: 45، وقد نسبت إلى لبيد بن ربيعة، وهي غير موجودة في ديوانه للطبوع.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن

الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 8، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-60-6

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

مج. 8: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.

1- القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-60-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»